PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

منهج الأشاعرة..

د. عادل حسن حمزة*

مقدمة البحث

الحمد لله الذي تفرد بالوَحْدانية، واتَّصَفَ بالصفات العُلْيَا السَّنية، وَتَنَزَّهَ عن كلِّ نقصٍ لا يليق بذاته العلية. والصلاة والسلام على خير البرية، النبي الذي أرسله ربُّهُ رحمةً لأُمّته الأولية والآخرية: صلى الله عليه وعلى آله وعترته الزكية، وعلى أصحابه الذين اهتَدَوْا بهديه وسُنَّته القوية؛ فنالوا بذلك قصب السَّبْق في مضمار الأفضلية، وعلى تابعيهم ومَن تبعهم بصدق وحب وحسن طوية.

وبعد: فهذا بحثٌ مختصرٌ عن منهج (الأشاعرة) في الاستدلال على العقيدة؛ في صفات الله تعالى، إثباتًا ونفيًا وأحكامًا عقليةً راجعةً إليها. والأشعريون مع الطائفة الأخرى (الماتريديين) هما أكبر الطوائف المُكَوِّنَةِ لجسد (أهل السنة والجماعة)، وقد اهتمت كلتاهما اهتمامًا بالغًا بمسائل العقيدة الإسلامية أصولاً وفروعًا، واستوفيتا البحثَ عنها بمزيدٍ من الاهتمام والعناية وفضلِ النظر؛ حتى عُرِفَ بين الأئمة والأُمَّة أنهما المرادان من لقب (أهل السُّنة والجماعة).. وهذا أمرٌ قد اشتهرَ غايةَ الاشتهار ولا يحتاج إلى توكيد.. وليس بين الطائفتين اختلافٌ محقَّق، بحيث يُبَدِّعُ بعضُهما بعضًا أو يُفَسِّقُهُ، وإنما هو اختلافٌ في بعض الفروع العَقَدِيَّةِ التي لم تَثْبُتْ كلُّها عن الإمامين الأشعري والماتريدي رضي الله عنهما وأتباعهما، وأكثرُ ما في مذهبيهما من خلاف لفظيٌّ لا معنويّ.

أهمية الموضوع:

تَتَمَثَّلُ أهميةُ هذا الموضوع فيما يأتي:

---

* أستاذ مشارك - جامعة الزعيم الأزهري - السودان

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

١- أنه في العقيدة الإسلامية، وهي أحدى المجالات التي يُفْتَرَضُ أن تُكْثَرَ فيها البحوثُ؛ بيانًا لوجهة النظر السليمة فيها.

٢- تظهر أهميةُ الموضوع كذلك في فتحه لطلاب العلم بابًا من أبواب التَّعَرُّفِ لأهل السنة والجماعة عن قُرْبٍ، ومعرفةِ عقائدهم عن كثب لا سيما الأشعريين؛ ليكون الحكمُ عليهم بعد ذلك بعدلٍ ووعيٍ وإنصاف، لا عن تأثُّرٍ وتقليدٍ لِمَا يُشيعُهُ مُخالِفُوهُمْ عنهم من كونهم مُعَطِّلَةً للصفات الخبرية، ومن كونهم يُقَدِّمُونَ العقلَ على النقلِ في الاحتجاج.. إلى آخرها من الاتهامات الباطلة المُغْرِضَة.

٣- للموضوع أهميته الخاصةُ في معرفة حكمِ الإسلام في التعامل مع مثل هذه الصفات؛ ليكونَ طلابُ الحقِّ وَرُوَّادُهُ على بصيرة.

أسباب اختياري للموضوع:

تعود أسبابُ اختياري لموضوعِ البحث إلى شيئين أساسيين:

أ- كثرةُ اللَّغَطِ والجدل الذي يُثارُ حولَ العقيدةِ الأشعريةِ السُّنِّيَة، وهل الأشعريةُ من أهل السنة والجماعة أم أنهم من الفِرَقِ الضالَّة؟ فجاء البحثُ عن هذه الطائفةِ وإمامها الجليلِ الذي تُنْسَبُ إليه؛ فَيَحْكُمُ النَّاظرُ عليها حكمًا يُوافِقُ التاريخ الصحيح المطلوب عن علمٍ وخبرةٍ وإنصاف؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

ب- قضية العقل والنقل والاستدلال على العقيدة هي من القضايا المهمة، وقد اخْتَلَفَتْ فيها أنظارُ الفرق، مما جَعَلَهَا محتاجةً إلى مزيد من البحثِ والتحقيق في

(١) المائدة: ٨

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

مسائلها الدقيقة، باعتبارها سببًا قد يُؤدِّي الجهلُ به إلى التَّفَرُّقِ والتَّنَازُعِ، للدرجة التي يُبَدِّعُ فيها بعضُنا بعضًا، وقد يصل أحيانًا الأمرُ إلى التكفير؛ ففي بيانها والحالة هذه سعيٌ نحو توحيد الصفوف وإزالةٌ للفُرْقة والوحشة.

هيكل البحث: جاء هذا البحث محتويًا على مقدمةٍ، وأربعة مباحث، وخاتمة.

أما **المقدمة** فهي التي تَقَدَّمَتْ. وأما **المباحث الأربعة**:

- **فالمبحث الأول:** نبذة مختصرة عن الإمام الأشعري.
- **المبحث الثاني:** الأشعريون وجهودهم في العقيدة.
- **المبحث الثالث:** منهج الاستدلال على العقيدة عند الأشاعرة.
- **المبحث الرابع:** العلاقة بين العقل والنقل عند الأشاعرة.

ثُمَّ تأتي أخيرًا الخاتمة: وفيها نتائج.

المبحث الأول
(نبذة عن الإمام الأشعري)

اسمه ونسبه:

هو علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل. ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

مولده:

ولد هذا الإمام الجليلُ في البصرة ٢٦٠هـ.

أخلاقه وشمائله:

الإمام الأشعري رضي الله عنه من الأئمة المتكلمين المجتهدين، بل هو الإمام المقدَّم مطلقًا في هذا الباب.كان إماماً زاهداً، ورعاً، عالماً، مواظبًا على السُّنة، مُقَدَّمًا على أقرانه، وكان لزهده يأكل من غَلَّةِ ضَيْعَةٍ ورثها من والده غلتها ثلاثة عشر درهمًا في السنة، وكان وِرْدُه كلَّ ليلةٍ ثلاثين ترويحةً مُوَاصِلاً فيها صلاةَ العشاء بصلاة الصبح لا ينام، وهو من أسرة الأشعريين الذين عُرِفُوا من بين أهل اليمن بتلاوة القرآن والجود والكرم والمؤاخاة.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

مصنَّفاته:

بلغت مصنَّفات الإمام الأشعري ثلاث مئة كتاب، منها:

- الإبانة عن أصول الديانة.
- ورسالته إلى أهل الثغر بباب الأبواب.
- واللُّمَع.
- ومقالات الإسلاميين.
- ونُسبتْ إليه رسالةٌ في استحسان الخوض في الكلام.

وكلها مطبوعة.

- ومن كتبه كتابه الكبير الذي سماه بالمختزن في التفسير وهو من أضخم كتب التراث الإسلامي.
- والرد على المجسمة.- وغيرها الكثير.وقد ضاعَ معظمُها في فتنة بغداد[1].

شيوخه:

قال الذهبي في ((العِبَر في خَبَرِ مَن غَبَر)): ((أخذ الحديثَ عن زكريا السَّاجي، وعلم الكلام والجدل والنَّظر عن أبي علي الجُبَّائي، ثم ردَّ على المعتزلة))[2].

وقال الصَّفَدِيُّ في ((الوافي بالوَفَيَات)): ((سمع زكريا الساجي، وابن خليفة الجُمَحي، وسَهْل بن نُوح، ومحمد بن يعقوب المقرئ، وعبد الرحمن بن خَلَف الضَّبِّي البصري. وروى عنهم في تفسيره كثيراً))[3].

---

١) انتهى ملخصًا من كتاب ((تبيين كذب المفتري)) للحافظ الكبير ابن عساكر الدمشقي. الصفحات: طبعة دار الكتاب العربي. انظر: ص١٢٨- ١٤١.

٢) العبر في خبر من غبر: للإمام شمس الدين ابي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ط: دار الكتب العلمية - بيروت ج٢، ص٣٣.

٣) الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ط: دار إحياء التراث - بيروت. ج٢٠، ص١٢٧.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

بعض ثناء العلماء عليه:

قال الخطيب في ((تاريخ بغداد)) عنه: ((صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة))[1]. ثم قال: ((قال أبو بكر الصيرفي: كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهرَ اللهُ تعالى الأشعريَّ فحجزهم في أقماع السمسم))[2] قال الإمام ابن عساكر معلقاً على كلام الإمام الصيرفي هذا: ((إسناد هذه الحكاية مضيء كالشمس ورواتها لا يخالج في عدالتهم شك في النفس وقائلها أبو بكر إمام كبير ومحله عند أهل العلم محل خطير))[3].

وقال القاضي عياض في ((ترتيب المدارك)): ((وَصَنَّفَ لأهل السُّنة التصانيفَ، وأقام الحجج على إثبات السُّنة وما نَفَاهُ أهلُ البدعِ من صفاتِ اللهِ ورؤيته وَقِدَمِ كلامه وقدرته، وأمور السمع الواردة من الصراط والميزان والشفاعة والحوض وفتنة القبر التي لَفَتَ المعتزلة، وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث، فأقام الحجج الواضحةَ عليها **من الكتاب والسنة والدلائل العقلية**، ودَفَعَ شُبَهَ المبتدعةِ ومَن بَعدهم من الملحدة والرافضة، وصنف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة))[4].

سبب رجوع الإمام الأشعريّ عن الاعتزال:

أفردتُ ذلك هنا لشدة التلبيس الحاصل فيه. علاوةً على أنَّ بعضهم يتخذه ذريعةً للطعن في الأشعرية بأنهم مُخَالِفُونَ لشيخهم بعد أن رجع إلى اتِّباعِ السلف، ومكثوا هم

---

١) تاريخ بغداد تأليف الامام أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ج٤، ص٣٩٣

٢) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لعلي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي ط: دار الكتاب العربي - بيروت، ج١، ص٩٤.

٣) تبيين كذب المفتري ج١، ص٩٤

٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: للقاضي عياض بن موسى اليحصبي: طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، الطبعة الثانية، تحقيق: د. محمد بن شريفة. ج٥، ص٢٤.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

على مذهبه القديم الذي تخلّى عنه وهو مذهب ابن كُلّاب وبقايا من الاعتزال عالقةٌ به قبل أن يخلصَ أخيرًا إلى السلفية.. وبذلك يكون له ثلاث مراحل تطوّرَ فيها مذهبُه: مرحلة الاعتزال، ثُمّ الكلابية، ثم السلفية!!!

وهذا غريبٌ وشاذٌ ومُنافٍ للحقيقة التاريخية الثّابتة؛ لكونه رجعَ من الاعتزال إلى السلفية الصحيحة ومذهب أهل السنة والجماعة مباشرةً، وهو مذهبٌ كان موجودًا قبله فوَسّعَهُ وزاده استدلالاً وبراهين عقلية، دون واسطةٍ أو مرحلة ثالثة يَمُرُّ بها من الاعتزال إلى تلك السلفية. أي كان له مرحلتان فقط: الاعتزال ثم السلفية..

وقد أجمعَتْ المصادرُ التاريخيةُ وكتبُ الطبقات وكتب التراجم على أنّ الإمام أبا الحسن الأشعري عاش صدرَ حياته ثلاثين سنة[1] معتزلياً؛ وذلك أنه تَرَبّى في كنف زوج أمه أبي علي الجبائي المعتزلي، تَعَلّمَ على يديه منهج المعتزلة. وتقدم في الاعتزال حتى صار رأسًا في المعتزلة، وأصبح مُناظِرَهُمْ الأوّل. ثم رجع عن عقائدهم وجاهر بخلافهم؛ لما تَبَحّرَ في الاعتزال وبَلَغَ فيه الغايةَ، فظهر له فسادَ طريقتهم، فانقطع عن مجالس شيوخه، واختلى عن الناس خمسة عشر يوماً، ثم خرج إليهم وقال: ((وقع في صدري في بعض الليالي شيءٌ مما كنتُ فيه من العقائد، فقُمْتُ وَصَلّيْتُ ركعتين، وسألتُ الله تعالى أن يَهْدِيَنِي الطريقَ المستقيمَ، وَنِمْتُ فَرَأَيْتُ رسولَ الله ﷺ في المنام- وكان ذلك في رمضان- فَشَكَوْتُ إليه بعضَ ما بي من الأمر، فقال لي رسول الله ﷺ: (عليك بسنتي) فانتبهتُ!! وعارضتُ مسائلَ الكلام بما وجدت في القرآن والآخبار فَأَثْبَتُّهُ، وَنَبَذْتُ ما سواه وراءَ ظهري. فلما أصبح ناظر الجبائي فأفحمه))[2].

قال ابن العماد الحنبلي في ((شذرات الذهب)) عن هذه المناظرة التي انتصر فيها الإمامُ الأشعريُّ لأهل السنة والجماعة والسلف: ((ومما بَيَّضَ به أبو الحسن الأشعري وجوه أهل السنة النبوية، وَسَوَّدَ به رايات أهل الاعتزال والجهمية، فأبانَ به

---

1) اشتهر أنها أربعون سنة، والصحيح أنها ثلاثون

2) تبيين كذب المفتري:ج1، ص39.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وجهَ الحقِّ الأبلج، ولِصُدُورِ أهلِ الإيمان والعرفان أثلج، مناظرةٌ _كما قال ابن خلكان_ : (سأل أبو الحسن الأشعري أستاذه أبا علي الجبائي عن ثلاثة إخوة...)[1] ونحذفها لأنها ليستْ موضوعَنا، وإنْ كانت مهمةً، وهي مشهورةٌ جدًّا.

قال ابن العماد: ((وفي هذه المناظرة دلالة على أنَّ الله تعالى خصَّ من شاء برحمته، واختصَّ آخرَ بعذابه))[2].

ومن أصحِّ ما رُوِيَ عن رجوعه أنه خرج إلى المسجد الجامع بالبصرة وصعد المنبر بعد صلاة الجمعة وقال: ((معاشر الناس من عرَفني فقد عرفني، ومن لم يعرفْني فأنا أبو الحسن الأشعري، قد انخلعتُ من جميع ما كنتُ أعتقده كما انخلعتُ من ثوبي هذا. وانخلع من ثوبٍ كان عليه، ورمى به))[3].

وصنَّفَ في الردِّ على المعتزلة.

الردُّ على الشُّبْهَةِ المتقدِّمة:

وهي أنَّ الإمامَ الأشعريَّ مَرَّ في مجال الاعتقاد بأطوارٍ ثلاثة:

- كان معتزليًّا؛
- ثم رجعَ عن الاعتزال فسَلَكَ طريقةَ الإمام عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب البصري؛
- ثم استقرَّ في آخر حياته على مذهب السلف؛ أي بمفهومهم.

وهذا الزعمُ باطلٌ من وجوهٍ كثيرةٍ؛ منها:

---

١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي تحقيق: محمود الأرناؤوط: دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ج٤، ص١٣٠.

٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب المؤلف: ابن العماد، ج٤، ص١٣٠.

٣) طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، طبعة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ، ج٣، ص٣٤٧- ٣٤٨.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

◆**الأول**: أنّ جميع المصادر والمراجع وكلَّ مَن تَرْجَمَ للأشعريِّ ذكر أنه رجع عن الاعتزال لِنُصْرَةِ السُّنة مباشرةً، دون طورٍ في الوسط.

◆**الثاني**: أنّ رجوعه كان بسبب رؤيةٍ نبوية رآها وشكٌّ في المذهب المعتزلي، فهل رجع من باطل إلى باطل مثله؟ فما قيمة رجوعه إذاً؟! وما قيمة تلك الرؤية المبشِّرة التي رآها؟!

◆**الثالث**: أنّ هذا الزعم تَفَرَّدَ بالقول به الحشويةُ والمجسمون[1] - مع مخالفته للتاريخ - لِيُبْطِلُوا عقائد الأشاعرة بادعاء أنّ شيخهم رجع عنها إلى مذهبهم الذين يسمونه سلفيًّا، فافتراءُ ذلك لتحقيق غايةٍ وهدف مقصود، وليس حجةً علميةً قام عليها الدليلُ بل **غائيةٌ** تفوح منها رائحةُ الغرض.

◆**الرابع**: القول بأنّ الإمام الأشعريَّ سلك طريق ابن كُلّاب ثم طريق السلف بعده باطل؛ لأنّ ابن كُلّاب نفسه على منهج السلف وأهل السنة والجماعة، وإن كان الإمام الأشعري اختلف معه في بعض المسائل.. ثُمَّ أكبر الأدلة على صحة مذهب ابن كلاب فيما اتفق فيه مع الأشعري أنّ إمام المحدثين وشيخهم محمد بن إسماعيل البخاري كان على منهج ابن كُلّاب والكرابيسي في العقائد؛ كما نَصَّ عليه ابن حجر في ((هدى الساري))[2]، ويشهد له موقفُ ابن هذيل معه في مسألة (لفظي بالقرآن مخلوق) التي نُسِبَتْ إليه، ووقوف الإمام مسلم مع الإمام البخاري حينما أخرجوه من بخارى.

---

١) الحشوية : بسكون الشين وفتحها وهم : قوم تمسّكوا بالظواهر فذهبوا إلى التجسيم . وهم من الفرق الضالة ، سمّوا بذلك لأنهم كانوا في حلقة الحسن البصري فوجدهم يتكلّمون كلاما فقال : ردّوا هؤلاء إلى حشا الحلقة .

٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي؛ رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي؛ قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب؛ عليه تعليقات: عبد العزيز بن عبد الله بن باز؛ دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، ج١، ص٢٤٣.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

❖**الخامس**: أنّ الأمام الأشعري صَرَّحَ عند رجوعه باتباعه للإمام أحمد وللسلف والأئمة: فقال في كتاب ((الإبانة)) الذي نَعُدُّه أَوَّلَ مؤلَّفاته لا آخرها: وقولنا الذي نقول به وديانتنا التي نَدِينُ بها: التمسك بكتاب رَبِّنَا عز وجلّ وبسُنَّةِ نبيِّنا ﷺ، وما رُوِي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل _ نضّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته _ قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنّه الإمام الفاضل والرئيس الكامل، الذي أبان به الحقَّ ودَفَعَ به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مُقَدَّم، وجليل معظم مفخّم))[1]. فيشمل القولُ بعقيدة الإمام أحمد القولَ بعقائد الأئمة الآخرين؛ فهو لم يختصَّ عليهم وينفرد بعقيدة..

❖ **السادس**: يتفق الأشعريون مع إمامهم في كل ما ذكره في كتاب ((الإبانة)): لا سيما التنزيه، فلو كانوا يخالفونه لصرحوا بذلك وأعلنوا رفضَهم للإبانة ولتبرّؤا منها.. أما تأويلهم أو تفويضهم الذي زعم الحشويون والمعارضون للأشعرية أنهم خالفوا الأشعريَّ فيه فَصَرَّحَ به في الإبانة نفسها، بل ثمّ آياتٌ وأحاديثَ لا بُدَّ من تأويلها كآيات وأحاديث المعية وكينونة الإله في السماء وفي الأرض والملل والهرولة والتردد، ونحوها.. يستوي في هذا سلفُنا بخلفنا من غير فارق..

وبذلك يَبْطُلُ ما افتروه على الإمام الأشعري والأشاعرة، وكان التطويلُ في تلك المسألةِ ضروريًّا لِدَحْضِ ما بَنَوْهُ عليها من الطعن في الأشعرية.

---

(1) الإبانة عن أصول الديانة ،للإمام علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري أبو الحسن ط: دار الأنصار - القاهرة الطبعة الأولى ، ١٣٩٧تحقيق :د. فوقية حسين محمود ،ص٣٠

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

علاقة الأشعريين بإمامهم:

ترجع علاقةُ الأشعريين بإمامهم إلى أنه الإمام الذي انهجَ لهم الطريق، فوافقوه على الحقِّ الذي ذهبَ إليه عن غير تقليدٍ له في ذلك.. واتَّفقَ الأشعريون مع إمامهم في جميعِ أصولِ الدِّين الأساسية، وعلى إثباتِ الصفات التي تدلُّ على الكمال المطلق ونَفَوْا عن الله تعالى كلَّ نقصٍ، ونَفَوْا جميع أوصافِ الجسميةِ ولوازمها، ورأيهم في الصفات الخبرية إما التفويض أو التأويل، مع الإيمان بها وتنزيه اللهِ تعالى عن مشابهةِ خلقِه فيها.

ولم يكن لهم اختلافٌ مع إمامهم في هذا الجانب ولا في الأصولِ المُجْمَعِ عليها؛ لأنه يقول بها، وإنما اختلافُهم في بعض الترجيح لرأي تابعٍ له على رأيه، وهذا قليلٌ نادر، في بعض التعاريف أو وجوهِ النظرِ الخفيفة؛ مع ائتمامهم به، ولا يعني ذلك بحالٍ أنهم ضدٌّ إمامهم أو يُخالِفُونَهُ في سَلَفِيَّتِهِ كما يشيعه أعداؤهم من المجسمة أو المعتزلة.

وقال العلامة الإمام محمد زاهد بن الحسن الكوثري: ((وفقهاء المذاهب يتجاذبون الأشعريَّ إلى مذاهبهم ويترجمونه في طبقاتهم، والحنابلة أحقُّ بذلك؛ حيث يصرح الأشعري في مناظراته معهم أنه على مذهب أحمد، لكنهم لا يترجمونه في طبقاتهم ولا يعدونه منهم، بل يَمُقُّهُ الحشويةُ منهم فوق مقت المعتزلة؛ فالمالكية كافة، وثلاثة أرباع الشافعية وثلث الحنفية وقسمٌ من الحنابلة على هذه الطريقة من الكلام من عهد الباقلاني))[1]. وقال أيضاً: ((والأشعريةُ هم العدل الوسط بين المعتزلة والحشوية، لا ابتعدوا عن النقل كما فَعَلَ المعتزلةُ، ولا عن العقل كعادة الحشوية. ورثوا خيرَ مَن تقدَّمَهُمْ وهجروا باطلَ كلِّ فِرْقَةٍ، حافظوا على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وملأوا العالَمَ علماً))[2].

---

١)مقدمة تبيين كذب المفتري، لمحمد زاهد الكوثري: ص٢٤.

٢)المرجع السابق: ص٢٦.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وفاته رضي الله عنه:

توفي الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ببغداد ٣٢٤هـ[1].

المبحث الثاني
(الأشعريون وجهودهم في العقيدة)

ما قام به الإمام الأشعري نفسه من جُهُود:

ساهم الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه بتراثه وأفكاره التي وضعها في كتبه وبواسطة تلاميذه، في التأصيل لعقائد أهل السنة الذين كانوا امتدادًا للصحابة والتابعين وورثة الأئمة الأكابر كمالك والشافعي وأحمد، وأسهموا في إيضاح الحجج والبينات على عقيدتهم، والرد على المعتزلة والمخالفين لأصولهم حتى قضوا على جميع البدع خصوصًا بدعة الاعتزال ونحوها.

وكان الأشعريُّ رحمه الله من الأئمة الذين حملوا لواءَ العلمِ في كلِّ ميادينه وصنوفه، ويعد من الأكابر الذين جمعوا بين شتى المعارف والعلوم والفنون من تفسير وحديث وفقه وأصول جمعًا حسنًا. وكانت له تصانيف في الرد على الملاحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة، هي التي صارت فيما بعد عمادَ أتْباعه ومدادهم من مالكية وشافعية وحنفية وحنبلية.

ما قام به الأشعريُّون:

بعد الإمام الأشعري انتشر تلاميذُه وتلاميذُ تلاميذه، وانبثُّوا في الآفاق. كان منهم ابن مجاهد، وأبي الحسين الطبري، وأبي بكر الإسماعيلي، وابن خفيف الشيرازي.. وأبو سهل الصعلوكي.. وغيرهم من التلاميذ..

وتَلَقَّهُمْ هذه الطبقة الرفيعة التي قامَ عليها المذهب، ورؤساؤهم ثلاثةٌ:

- أبو بكر الباقلاني،

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ط: دار صادر بيروت، ج٣، ص٢٨٥.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

- وأبو بكر بن فورك،
- وأبو إسحاق الإسفراييني.

فَنَشَرُوا المذهبَ على أوسع نطاق، حتى عَمَّ المذهبُ الخافقين. وقد أدخلوا عليه تصويبات وتحسينات وخدمات..

ومن مشاهير الأشاعرة من الطبقات التي عَاصَرَتْ أو تَلَتْ:

- الإمام الدارقطني،
- وأبو ذر الهروي وهو راوي الصحيح،
- ابن أبي زيد القيرواني صاحب كتاب ((الرسالة)).
- وأبو عبد الله الحاكم المشهور بابن البيع صاحب ((المستدرك)) وهو من أصول الإسلام المهمة،
- الإمام الخطابي البُستي صاحب ((معالم السنن على أبي داود))،
- والحليمي صاحب ((المنهاج في شعب الإيمان)).
- والبيهقي صاحب كتاب ((السنن الكبرى)) الذي يعادل مسند الإمام أحمد حجمًا أو يزيد وهو أصل من أصول الإسلام عظيم، كما أنه صاحب كتاب ((الأسماء والصفات)) الذي لم يؤلَّف مثلُه.
- والحافظ الجليل ابن عساكر صاحب ((تاريخ دمشق)) من أضخم تواريخ العالم وأصل أصيلٌ لا يُستغنى منه،
- والخطيب البغدادي صاحب ((تاريخ بغداد)).
- وحجة الإسلام الإمام الغزالي وهو الذي أحياالله به الدين، وهو مجدد القرن الرابع بلا منازع،
- وشيخه الجويني،
- وفخر الدين الرازي،
- وابن عطية،

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

- والقرطبي، أصحاب التفاسير المعلومة..
- والإمام النووي العَلَم الأشهر صاحب ((الأذكار)) و((رياض الصالحين)) وغيرها من الكتب النافعة،
- نزولاً إلى الخطيب الشربيني،
- والإمام إبراهيم اللقاني،
- والبيجوري،
- والإمام السنوسي،
- وسيدي أحمد الدردير،
- وشيوخ الأزهر الشريف جميعهم،
- وشيوخ العلم والدين بمعهد وجامع الزيتونة..
- إلى آخر مَن لا يُحصون كثرةً.

وَتَوَلَّى الأشعريون مناصبَ التدريس والفتوى والقضاء وإمامة المساجد والزوايا وريادة المجتمع وقيادته في كل الشؤون، واختلطَتْ بهم المذاهبُ الفقهيةُ، وأَلَّفُوا في أصولِ الدين وفروعه الكتب التي عليها اعتمادُ المسلمين في التفسيرِ والحديثِ والفقهِ وأصوله، وفي التوحيدِ والتصوفِ واللغةِ والأدبِ والنحوِ والصرفِ والبلاغة، حتى صارَتْ مراجعُهم هي التي لا يعرف المسلمون سواها، ولا يَعْتَدُّونَ بغيرها، بحيث صارَتْ دنيا العلمِ وبركاته خالصةً للأشعريين.. وطَبَّقَ المذهبُ الآفاق، ولم ينتشر بالسيف أو بإعانة حاكمٍ وإنما انتشر بالحجة والإقناع..

ومن التفاسير الأشعرية: تفسير القرطبي وابن عطية والنيسابوري وفخر الدين الرازي وابن كثيرٍ الدمشقي وابن عادلٍ الدلجي والآلوسي والخطيب الشربيني وتاج التفاسير للسيد الختم والتحرير والتنوير للفاضل بن عاشور ... وغيرها.

ومن شروح الحديث شرح ابن بطالٍ وابن حجرٍ العسقلاني والبدر العيني على البخاري، وشرح الإمام النووي والأُبّي والقاضي عياضٍ والمازري والسنوسي على مسلم،

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

والإمام الباجي وأبي بكر بن العربي والزرقاني على الموطأ، وشروح السنن كلها أشعرية... إلى غير هذا من شروح الحديث، كشرح ابن أبي جمرة على البخاري، وشرح رياض الصالحين لابن علان الصديقي وزاد المسلم للحبيب الجكني الشنقيطي، وفتح القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي... وما إلى ذلك من الكتب في مختلف العلوم.. كلها أشعرية..

وكان قد قال القاضي عياض في ((ترتيب المدارك)): ((تَعَلَّقَ بكتب الإمام الأشعريِّ أهلُ السُّنة وأخذوا عنه، ودرسوا عليه، وتفقهوا في طريقه، وكثر طلبته وأتباعُهُ، لِتَعَلُّمِ تلك الطُّرُقِ في الذبِّ عن السُّنة وَبَسْطِ الحُجَجِ والأدلَّة، في نُصرَةِ المِلَّةِ، فَسُمُّوا باسمه، وَتَلاهُمْ أتباعُهم وطلبتُهم فَعُرِفُوا بذلك _ يعني : الأشاعرة _ وإنما كانوا يُعْرَفُونَ قبل ذلك بـ**المُثْبِتَةِ**؛ سِمَةً عَرَفَتْهُمْ بها المعتزلةُ إذ أثبتوا **من السُّنة والشَّرْعِ** ما نَفَوْهُ))[1].

وإلى العصر الحديث لا يزال الأشعريون تشهد لهم جماعاتُ العلماء والمتقفين؛ حتى قال الشيخ حسن أيوب في كتابه ((تبسيط العقائد الإسلامية)): ((**أهل السنة هم** أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي؛ ومَن سلك طريقهما؛ **وكانوا يسيرون على طريقة السلف الصالح في فهم العقائد، وقد جعلوا القرآن الكريم المنهل العذب الذي يلجؤون إليه في تعرف عقائدهم**، فكانوا يفهمون من الآيات القرآنية مسائل العقائد وما اشتبه عليهم منها حاولوا فهمه بما توحيه أساليبُ اللغة ولا تنكره العقول، فإن تعذر عليهم تَوَقَّفُوا وَفَوَّضُوا. وقد سُمِّيَ اتباعُ أبي الحسن الأشعري (الأشاعرة) وأبي منصور الماتريدي (بالماتريدية) ولم يكن بين الأشاعرة والماتريدية خلاف إلا في أمور يسير كمفهوم الإيمان والإسلام ومعنى القضاء والقدر وغير ذلك مما يقع عادة بين أهل الطريقة الواحدة ولا يقتضي تخالفاً في المذهب))[2].

---

1)ترتيب المدارك: ج٥، ص٢٥.

2)تبسيط العقائد الإسلامية، للشيخ حسن أيوب: ص

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المبحث الثالث
(منهج الاستدلال على العقيدة عند الأشاعرة)

كلامٌ عامٌ عن المنهج:

يعتبر المذهبُ الأشعريُّ المذهبَ السُّنِّيَّ الأذيع صيتًا والأكثرَ أتْبَاعًا في العالم الإسلامي؛ لِبِنَاءِ دعائمه على الكتاب والسنةِ أساسًا، مما جَعَلَهُ محلَّ الاطمئنان والثقةِ بين الجماهير الغفيرة للمسلمين. ولم يكن مذهبًا جامدًا على النصوص المجرَّدة كمذهب الحشوية، كما لم يُهْمِلْ جانبَ النقلِ تمامًا أمامَ العقل على نحو ما فَعَلَتْ طوائفُ الجهمية والقدرية والمعتزلة. وقد قامَ المذهبُ لمناهضةِ المعتزلةِ في هذا الجانب إبرازًا لأهميةِ الجانبِ النقليِّ المهمل عندهم ودفاعًا عنه.. حتى كان الإمامُ الأشعري يقول عند رجوعه عن الاعتزال بعدَ أن مكثَ فيه ما يُقَارِبُ أو يساوي ثلاثين سنةً من عمره وهو يصعد منبر البصرة ويعلن رجوعَه: ((من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أُعَرِّفُهُ نفسي، أنا فلان بن فلان، كنت قلتُ بخلق القرآن، وأن الله لا يرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلعٌ ، مُعْتَقِدٌ للرَّدِّ على المعتزلة))[1]..

فرجوعُه عن الاعتزالِ رجوعٌ إلى النهج الاستدلاليِّ السليم الذي عليه السلفُ وأهلُ السُّنة والجماعة وأهلُ الحديث من قَبْلِهِ، الذين يُمَثِّلُ مذهبُه امتدادًا طبيعيًا لهم. ويرتكز على النقل بالمقام الأول. إلاَّ أنَّ الإمام الأشعريَّ مع هذا اهتمَّ ببراهين العقل لتأكيدِ الجانبِ النقلي وبيانِه، ويكشف هذا عن مرونةٍ وسعةٍ في مجالِ الاستدلالِ لا تهمل الأمرين، مما تَرَكَ للأشعرية مجالاً خصبًا للتَّحرُّكِ الراشد الواعي في ميدانِ الدليل، وإنْ كان بناؤهم أصلاً على الدليل النقلي وهم يُقَدِّمُونَهُ في المرتبةِ على الدليل العقلي.. من هنا يمكن استنتاج هذه الحقيقةِ الناصعةِ فيما يخصُّ منهج الاستدلال على العقيدة عند الأشاعرة؛ وهو أنهم يبتدئون في الاستدلالِ حين تكون مخاطبتهم لمن يؤمنون بها ويذعنون لها بالأدلة النقلية (أي نصوص الكتاب والسُّنةِ وإجماع الصحابة).

---

1)انظر وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٨٥.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

ثُمَّ يُتْبِعُونَ ذلك بالأدلة العقلية على وجه التَّعَاضُدِ والشَّرْحِ والتَّوْكيد، حتى إذا خاطبوا فيلسوفًا أو جدليًّا لا يقتنع بالقرآن والحديث ولا يلقي لهما بالاً قدموا له وأشهروا سلاحَ العقل لا إلغاءً للنقل ولا إهمالاً لجانبه، وإنما يختارون ما يقطع حجةَ الخصم واضعين في المقام الأول أنهم أهل نقل ويحتجون بالعقل تثبيتًا للنقل.. فالأَدِلَّةُ النقليةُ والعقلية عندهم يُؤَيِّدُ كُلٌّ منهما الآخرَ، ومرتبةُ الدليل النقلي عندهم أَوْلَى. هذا هو التوجه العام والصبغةُ العامةُ للمذهب، وسيذكر الباحثُ تفصيلاتٍ أخرى في المبحث الآتي الخاص بمسألة العقل والنقل بمشيئة الله.

إشارةٌ إلى مصدر التلقي عند الأشاعرة:

كما ما ذكرنا؛ مصدرُ التَّلَقِّي عند الأشاعرة هو:

١- الكتاب،

٢- السُّنة،

٣- الإجماع،

٤- العقل.

ويرتبونها بهذا الترتيب؛ فانظرْ الآنَ كيفَ يؤخِّرون العقلَ في الرُّتبة. ومن شواهد ذلك ما يقوله الإمامُ الأشعريُّ ناصًّا على منهج استدلاله الذي ثبِعَهُ عليه الأشاعرةُ في كتابه ((الإبانة)) بتحقيق الدكتورة فوقية حسين: ((قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وسنة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة أهل الحديث ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به المبتدعين وزيغ الزائغين، وشك الشاكين))[1] انتهى.

---

١) ((الإبانة عن أصول الديانة)) لإمام أهل السنة والجماعة أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري. ص: دار الانصار بالقاهرة، بتحقيق الدكتورة فوقية حسين. الطبعة الأولى.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

والأشعريون التزموا هذا المنهجَ وَطَبَّقُوهُ فعليًا في أرض الواقع حتى صارَ هذا من أوضح الواضحات التي لا تفتقر إلى بيان.. ولكن لا بأس بأن نستشهد ببعض النصوص الدالَّةِ عليه: يقول سيفُ السُّنة ولسان الأمة العلامة الإمامُ أبو بكر بن الباقلاني في الاستدلال على مسألة النعمة بالإيمان: من كتابه ((الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به)): ((وخلق الإيمان والتوفيق له، نعمة خصَّ اللهُ تعالى بها المؤمنين دون الكافرين، ولذلك قال عز وجل:﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]،وقال تعالى:﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]. فلو كانت هذه النعمة له على الكافرين لم يكن لتخصيصه بها المؤمنينَ وامتنانه على المؤمنين به لوجه، إذ كان قد أنعم بها على المردة والكفرة الضالين))[3].

وقال في توضيح مآخذ الأدلة عامة، في العلميات أو العمليات، وبيانِ مراتبها والاستدلال عليها: ((وأن يعلم: أن طرق المباين عن الأدلة التي يُدْرَكُ بها الحق والباطل خمسة أوجه: كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع الأمة، وما استخرج من هذه النصوص وَبُنِيَ عليها بطريق القياس والاجتهاد، وحجج العقول. قال الله تعالى آمراً باتباع كتابه والرجوع إلى بيانه:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[4]، وقال عز وجل:﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[5]، وقال تعالى:﴿إِنَّ

---

١) البقرة: ٦٤.

٢) النساء: ٨٣.

٣) كتاب ((الإنصاف)) مختصراً وما بين المعقوفتين زيادة لتتمة النص كما في التحقيق، وهو الصواب. من ص ١٢٦. أعده للنشر وقدم له بدراسة عن المؤلف ومنهجه في الاستدلال الحبيب بن طاهر. دار مكتبة المعارف للطباعة والنشر - بيروت. الطبعة الأولى ٢٠١١

٤) محمد: ٢٤.

٥) النساء: ٨٢.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[2]. وقال عز وجل في الأمر باتباع رسوله ﷺ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[3]، وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[4]، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5]. وقال سبحانه في وصف عدالة أمة نبيه ﷺ والأمر باتباعها، والتحذير من مخالفتها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[6]، وقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[7]، وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[8]. وقال في الأمر بالقياس والحكم بالنظائر والأمثال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[9]، وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[10]. وقال النبي ﷺ لقاضيه معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أنفذه إلى اليمن لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق: ((بم تحكم؟)) قال: بكتاب الله عز وجل. قال:

---

١) الإسراء: ٩.

٢) النحل: ٨٩.

٣) الحشر: ٧.

٤) النجم: ٣، ٤.

٥) النور: ٦٣.

٦) البقرة: ١٤٣.

٧) آل عمران: ١١٠.

٨) النساء: ١١٥.

٩) الحشر: ٢

١٠) النساء: ٨٣.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

((فإن لم تجد؟)) قال: بسنة رسول الله ﷺ. قال: ((فإن لم تجد؟)) قال: أجتهد رأيي وأحكم. فقال: ((الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسوله لما يُرْضِي اللهَ ورسولَه))؛ فأقرَّه على الحكم والاجتهاد وجَعَلَهُ أحدَ طرقِ الأحكام. وقال عز وجل في الأمر باتباع حجة العقل:﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1]. وقال:﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾[2]، وقال:﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[3]، وقال:﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[4]، وقال تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[5]؛ فأمرنا بالاعتبار والاستبصار ورَدِّ الشيء إلى مثله أو الحكم له بحسب نظيره، وهذا هو الحكم المعقول والتقاضي إلى أدلة العقول)).وقال: ((والإيمان بالله تعالى يتضمن التوحيد له سبحانه، والوصف له بصفاته، ونفي النقائص عنه الدالة على حدوث من جازت عليه. والتوحيدُ له هو: الإقرار بأنه ثابت موجودٌ، وإله واحد فرد معبود، ليس كمثله شيء؛ على ما قرر به قوله تعالى:﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[6]، وقوله:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[7]. وأنه الأول قبل جميع المحدثات الباقي بعد المخلوقات، على ما أخبر به

---

١) الذاريات: ٢١.

٢) الواقعة: ٥٨، ٥٩.

٣) آل عمران: ١٩٠.

٤) يس: ٧٨، ٧٩.

٥) الروم: ٢٧.

٦) البقرة: ١٦٣.

٧) الشورى: ١١.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

تعالى من قوله:﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]، والعالِمُ الذي لا يخفى عليه شيء، والقادر على اختراع كل مصنوع، وإبداع كل جنسٍ مفعول، على ما أخبر به في قوله تعالى:﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، وهو على كل شيء قدير. وأنه الحي الذي لا يموت، والدائم الذي لا يزول، وأنه إله كل مخلوق، ومبدعه ومنشئه، ومخترعه، وأنه لم يزل مُسَمِّيًا لنفسه بأسمائه، ووَاصِفاً لها بصفاته، قبل إيجاد خلقه. وأنه قديمٌ بأسمائه وصفات ذاته، التي منها الحياةُ التي بها بان من الموت والآموات، والقدرةُ التي أبدع بها الأجناس والذوات، والعلم الذي أحكم به جميع المصنوعات، وأحاط بجميع المعلومات، والإرادة التي صرف بها أصناف المخلوقات. والسمع والبصر اللذان أدرك بهما جميع المسموعات والمبصرات، والكلام الذي به فارق الخرس والسكوت وذوي الآفات، والبقاء الذي به سبق المكونات، ويبقى به بعد جميع الفانيات، كما أخبر سبحانه في قوله:﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[3]، وقوله تعالى:﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾[4]،﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾[5]، وقوله:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[6]، وقوله: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[7] .. فنَصَّ تعالى على إثبات أسمائه وصفات ذاته، وأخبر أنه ذو الوجه

---

١) الحديد: ٣.

٢) الأنعام: ١٠٢

٣ الأعراف: ١٨٠.

٤ النساء: ١٦٦.

٥ فاطر: ١١.

٦ فصلت: ١٥.

٧ الذاريات: ٥٨.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الباقي بعد تقضّي الماضيات، كما قال عز وجل:﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[1]؛ وقال:﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[2]. واليدين اللتين نطق بإثباتهما له القرآن، في قوله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[3]، وقوله:﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[4]، وأنهما ليستا بجارحتين، ولا ذواتي صورة وهيئة؛ والعين؛ التي أفصح بإثباتها من صفاته القرآن وتواترت بذلك أخبار الرسول عليه السلام، فقال عز وجل:﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[5]، و﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[6]، وأن عينه ليست بحاسة من الحواس، ولا تشبه الجوارح والأجناس))[7].

ويقول في إثبات الرؤية والاستدلال عليها من الكتاب والسنة: ((وأنه سبحانه يتجلى لعباده المؤمنين في المعاد، فيرونه بالأبصار، على ما نطق به القرآن في قوله:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[8] وتأكيده كذلك بقوله في الكافرين:﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾[9] تخصيصاً منه برؤيته للمؤمنين، والتفرقة فيما بينهم وبين الكافرين، وعلى ما وردت به السنن الصحيحة في ذلك عن

---

١ القصص: ٨٨.

٢ الرحمن: ٢٧.

٣ المائدة: ٦٤.

ص: ٧٥.

٥ طه: ٣٩.

٦ القمر: ١٤

٧ والنص من ((الإنصاف)) بتصرف عن الأصل المطبوع ص٥ وفيه ذكر عينين: وقد أثبت الأشعرية يدا وبدين ليست بجارحتين، ولم يرد عنهم أنه أثبتوا عينين وهذا مستقرّ في مذهبهم.

٨ القيامة: ٢٢، ٢٣

٩ المطففين: ١٥.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

رسول الله ﷺ، وما أخبر به عن موسى عليه السلام، في قوله:﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[1]، ولولا علمه بجواز الرؤية بالأبصار لما أقدم على هذا السؤال))[2].

منهج الأشاعرة..

وهذا المنهج من الاستدلال ليس غريبًا على الأشاعرة: فهذا هو الإمامُ البيهقي رضي الله عنه في كتابه ((الأسماء والصفات))؛ في باب (جماع أبواب إثبات صفات الله عز وجل) يقول: ((فلا يجوز وصفه إلا بما دل عليه كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله.

أو أجمع عليه سلف هذه الأمة ثم منه ما اقترنت به دلالة العقل كالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام ونحو ذلك من صفات ذاته وكالخلق والرزق والإحياء والإماتة والعفو والعقوبة ، ونحو ذلك من صفات فعله ومنه ما طريق إثباته ورود خبر الصادق به فقط كالوجه واليدين والعين في صفات ذاته، وكالاستواء على العرش والإتيان والمجيء والنزول ونحو ذلك من صفات فعله، فثبتت هذه الصفات لورود الخبر بها على وجه لا يوجب التشبيه))[3]. إلى أن يقول: ((ونحن نشير في إثبات صفات الله تعالى ذكره إلى موضعه من كتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله ﷺ، وإجماع سلف هذه الأمة، على طريق الاختصار ليكون عونًا لمن يتكلم في علم الأصول من أهل السنة والجماعة، ولم يَتَبَحَّرْ في معرفة السنن وما يقبل منها وما يرد من جهة الإسناد والله يوفقنا لما قصدناه، ويعيننا على طلب سبيل النجاة بفضله ورحمته))[4]. اهـ. وقال في كتابه الآخر ((الاعتقاد)) وهو يتحدث عن مسألة الاستواء: ((ثم المذهب الصحيح في جميع ذلك الاقتصار على ما ورد به التوقيف دون التكييف، وإلى هذا ذهب المتقدمون

---

١ الأعراف: ١٤٣.

٢الإنصاف: ص٦.

٣ كتاب ((الأسماء والصفات)) للإمام الكبير حافظ عصره أحمد بن الحسين البيهقي. ص٢٧٦

٤الأسماء والصفات، للبيهقي. ص٢٧٧

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

من أصحابنا ومن تبعهم من المتأخرين وقالوا: الاستواء على العرش **قد نطق به الكتاب في غير آية، ووردت به الأخبار الصحيحة؛ فَقَبُولُهُ** من جهة التوقيف واجب، والبحث عنه وطلب الكيفية له غير جائز))[1] وقال الإمام أبو حامد الغزالي في ((الرسالة اللدنية)): ((وأهل النظر في هذا العلم **يتمسكون أولاً بآيات الله تعالى من القرآن، ثم بأخبار الرسول ﷺ وآله وسلم**، ثم بالدلائل العقلية والبراهين القياسية))[2] ويقول العلامةُ القاضي عبد الوهاب المالكيُّ البغداديُّ في ((شرحه لعقيدة ابن أبي زيد القيرواني في كتابه ((الرسالة)): ((واعلمْ أنَّ الوَصْفَ له بالاستواء **إتِّبَاعٌ للنصِّ، وتسليمٌ للشرع، وتصديقٌ لِمَا وَصَفَ نفسَه تعالى به**، ولا يجوزُ أنْ يُثْبَتَ له كيفيةٌ؛ **لأنَّ الشرعَ لم يَرِدْ بذلك، ولا أَخْبَرَ النبيُّ عليه السلام فيه بشيء**، ولا سَأَلَتْهُ الصحابةُ عنه، ولأنَّ ذلك يرجعُ إلى التَّنَقُّلِ والتَّحَوُّلِ وإشغالِ الحَيِّزِ والافتقارِ إلى الأماكنِ، وذلك يؤول إلى التجسيم، وإلى قِدَمِ الأجسام، وهذا كُفْرٌ عند كافَّةِ أهلِ الإسلام))[3].

المبحث الرابع
(العلاقة بين العقل والنقل عند الأشاعرة)

قضية العقل والنقل والعلاقة بينهما، من المواضع الدقيقة التي تحتاج إلى فضل تأملٍ، خصوصًا وأنَّ الأشاعرة اتُّهِمُوا ظلمًا بأنهم يقدمون العقلَ على النقل. ويخطئ من يدعي أن الأشاعرة يحكمون العقل في النصوص كما يفعل المعتزلةُ أو الجهميةُ وسائرُ أصناف التعطيل. وهذه الفرية المفتراة قصدًا كلامُ مَن لا يعرف حقيقةَ المذهب

---

(1) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، للإمام البيهقي طبعة دار الآفاق الجديدة بيروت ص١١٤

(2) الرسالة اللدنية، (ضمن مجموع رسائل الإمام الغزالي) للإمام أبي حامد الغزالي: - دار الكتب العلمية، بيروت - د.ت - ص ٦٢.

(3) طبعة دار البحوث الإسلامية وإحياء التراث – دولة الإمارات العربية المتحدة – دبي ، من سلسلة الدراسات العقدية برقم (1)، ص: ١٦٤؛ تحقيق ودراسة الأستاذ الدكتور أحمد محمد نور سيف، الطبعة الأولى لسنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الأشعري، فإنه مذهبٌ سُنِّيٌّ كما علمنا في المبحث السابق مُشَيَّدٌ على الكتاب والسُّنَّة؛ لم يُغَالِ في النقل فيجمد على ظاهره كما لم يغال في العقل لدرجة أن يرفضَ النقلَ معه ويؤوله تأويلاً بعيدًا مضادًّا للنقل أو متمردًا عليه.. وكما هو مشهورٌ أن الأشاعرة في ذلك وَسَطٌ متعادلٌ ومتوازنٌ بين العقل والنقل.. ولذلك وَجَدَ المذهبُ الاهتمامَ البالغ من العلماء والقبولَ له لتوسطه، ووجد الاعتناقَ التام والحظوةَ من أهل المذاهب الفقهية، وكثر القائلون به كثرةً بالغةً حتى طَبَّقَ العالَمَ الإسلاميَّ شهرةً..

ويعتبر من أهَمِّ مبادئ هذا المذهب وقواعده فيما يخصُّ هذا الجانبَ وهو جانبُ العقل والنقل والعلاقة بينهما: رَفْعُ الخلافِ بين العقل والنقلِ؛ إذ هما عندهم لا يتعارضان ولا يتخاصمان، ومن هنا لا يَرَوْنَ حرجًا من الأخذ بهذا أو ذاك، في أيِّ وقتٍ احتاجوا فيه إلى واحدٍ منهما لتأييد العقائد به أو الرَّدِّ على المُخَالِفين من أهل اعتزالٍ أو فلاسفةٍ أو ملاحدةٍ أو دهريةٍ أو ثنويةٍ وأهلِ تثليثٍ ومشركين ونحوهم، من المُخَالِفين الذين لا يرون حجيةً للقرآن والسنة، إلا بعد إقامة الأدلة العقلية على الإيمان بالله وأنَّ القرآنَ كلامُ الله وأنَّ محمد بن عبد الله هو رسول الله ﷺ.

ويَفْهَمُ بعضُ مُخَالِفي الأشاعرة والمتكرين عليهم أنهم حينما يستعملون سلاحَ العقلِ ويتوسَّعون فيه مع خصومهم الذين يَبْنُونَ على العقل المحض في الوقت الذي يُقَلِّلُونَ فيه من الاستشهادِ بالنقل: أنهم يجعلون العقلَ مصدرَ التَّلَقِّي الأكبر، ويُقَدِّمُونَهُ في الرُّتْبَةِ على النقلِ، والواقعُ ليس كذلك، وإنما هم يستخدمون سلاحًا مثلَ سلاحِ خصمهم ويحتجون عليه بشبيهٍ من حُجَّتِهِ لَمَّا كانت حجتُه العقلَ، ويَرَوْنَ ذلك أَفْعَلَ في الإفحام.. ومجاميعُ كتبهم ومؤلَّفاتُهم الكبيرةُ والصغيرةُ تَدُلُّ على كونهم اعتمدوا ذلك في شبيهِ هذه الحالات لا في كل الحالات، والصحيحُ أنهم لا يضعون مرتبةَ العقلِ فوق النقلِ، بل العكس؛ وإنما دَعَتْ الضرورةُ الآنيةُ إلى التوسع فقط في دليل العقل.

وكيف يقدم الأشاعرةُ العقلَ على النقلِ ومن أشهر أصولِ مذهبهم أنه لا مجال للعقل في التحسين والتقبيح، وأنه لا حَسَنَ إلا ما حَسَّنَهُ الشَّرْعُ ولا قبيح إلا ما قَبَّحه.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

منزلة العقل عند الأشاعرة موازنةً بالنقل:

أ- يذكر الأشاعرة في أحيانٍ كثيرةٍ على كلِّ عقيدةٍ أدلَّتها النَّقْلِيةَ قبل الدليل العقلي، ويركزون على النقل خصوصًا عند ما لا يخاطبون بكتبهم المخاصمين والمجادلين من الطرف الآخر.. ومن تلك الكتب على هذا النهج كتاب ((السنة)) لأبي بكر الإسماعيلي، وكتاب ((الإنصاف)) لابن الباقلاني، وكتاب ((الأسماء والصفات)) للبيهقي، و((العقيدة النظامية)) لأبي المعالي الجويني، وكتاب ((ثبوت القدمين عند سؤال الملكين)) للعارف بالله سيدي عبد الغني النابلسي، و((القول السديد في شرح كفاية المريد)) للستوسي، ونحوها. لكن لا يعني ذلك أنهم يلتزمون بهذا بل أحيانًا يتخلل الاستدلال النقلي استدلالاً عقليًا ولا يكون هو المطلوب لوقته كما أشرنا.

ب- يكتفي الأشاعرةُ بمجرَّد الإشارة إلى الدليل النقلي عند الاختصار للمتون العلمية أو نظم[٦] اكتفوا فيه بالأساسيات، ويرون ذلك الاقتصارَ للدليل النقلي كافيًا لكونهم يركزون في هذه الحالة على المسائل أو القواعد المجردة، وَهمَمُهُمْ في هذه الحالةِ مصروفة لهذا الغرض وليس للدليل.

ج- عند التَّعَارُضِ المُتَوَهَّمِ بين ظاهر الدليل النقلي مع الدليل العقليِّ القطعيِّ، ولا يُتَصَوَّرُ التعارضُ - حينئذٍ- بين نصٍّ قطعيِّ الدلالةِ، وعقلٍ قطعي، وإنما بين نصٍّ ظنِّيِّ الدلالة مع عقلٍ قطعي، فالذي يُقَرِّرُهُ الأشاعرةُ هنا، وفي هذه الحالةِ النادرة، تقديم العقل على النقل.. أيْ اتِّخَاذُ العقلِ مرجعًا لتصحيح الفهم المرجوح بفهمٍ أرجحَ منه للدليل القائم العقلي المستمد من قطعيات النقول، وذلك في النصوص المتشابهة التي يَتَوَهَّمُ من ظاهرها المجسِّمُ أنها تدلُّ على الجسمية ولوازمها، فيصرفها لهذا الفهم المرجوح، فَيُدْفَعُ تَوَهُّمُهُ بالتأويلِ أو التفويض الذي هو أرجح، وهذا مبدأ القول بالتفويض والتأويل عند الأشعرية، ولا تَعَلُّقَ لذلك أصلاً بإنكارِ نصٍّ ثابتٍ أو تعطيلِ معناه كما يزعمه الحشويون، وإنما هذا دَفْعُ فهمٍ ظني لم يَدُلَّ عليه دليلٌ نقلي قطعي

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

بل دَلَّ عليه ظاهرٌ مُتَوَهَّمٌ، والظاهرُ المتَوَهَّم كما هو واضحٌ ليس ظاهرًا حقيقيًّا للنصِّ، بل هو ظاهرٌ ادُّعِيَ للنَّصِّ ادِّعَاءً.. وبالتالي يرجع تقديمُ العقلِ في هذه الحالةِ إلى رد متشابه إلى النَّصِّ المحكَم الذي جاء في آياتٍ وأحاديث قطعية الدلالة والثبوت: كقوله تعالى:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]، وقوله سبحانه وتعالى:﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[2]، مع قوله الآخر المتشابه:﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾[3]: فذلك نص محكم، يُقَدَّم في فهمه على مثل فهم ظاهر قوله تعالى:﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾أنه سبحانه جالس فوق السماء؛ لأنه ظاهرٌ مُتَوَهَّمٌ وليس ظاهرًا حقيقيًّا، فَيُرَدُّ الفهمُ السقيمُ إلى فهم سليم، ويُسْلَكَ به إما التفويض أو التأويل.. على ماهو معلومٌ لدى الأشاعرة.. وفي نهاية المطاف مهما ذُهِبَ بالفهم إلى تأويلٍ أو تفويضٍ فهو علو يليق بجلاله تعالى وفقَ تلك الآيات المحكمات.

وإذا رجع الفهمُ للظاهر كان مأخذُهُ بالظَّنِّ ضعيفًا، فَيُرَدُّ إلى اليقيني المقطوع به، ويُعْرَفُ هذا بالقانون الكلي للمتشابهات، وسيأتي بعد هذه الفقرة.

د- إن أهم أصول العقيدة الإسلامية لا يصح إثباتها لمن لا يؤمن بالنقل إلا بالعقل، وإثباتها بالدلائل النقلية مستلزم للدور المحال؛ وذلك مثل إثبات وجود الله تعالى وعلمه وقدرته ومشيئته وكلامه وغيره مما يتوقف عليه ثبوتُ الوحي. فلأن ثبوت النقل موقوفٌ على ثبوتها لا يصح الاستدلالُ عليها بالنقل، فالمنكِرُ للقرآن إذا أردتَ أن تثبتَ له أنه كلامُ الله فلا يقبل نصًّا قرآنيًّا هو أصلاً لم يؤمن به، فإذا أتيتَ له بدليلٍ عقليٍّ على صحةِ القرآن قَبِلَ أنه كلامُ الله، ولكنه لا يقبله قبلَ هذا.. فالاستدلالُ على صحة النقلِ بالنقل بالنسبةِ للمُنْكِرِ له موجبٌ لتقديم الشيء على نفسه وهو الدور المحال.

١- الشورى: ١١.

٢- الأنعام: ٣.

٣- الملك: ١٦.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

هـ- وكذلك النبوة إنما يتوقف ثبوتها على المعجزة الدالة عليها بطريق العقل فكأنَّ العقلَ على هذا أصلٌ للنقل، وشاهدٌ على صدقه.

شرح القانون الكُلِّيُّ للمتشابهات:

قال الإمامُ أبو عبد الله محمد بن عمر المعروف بالإمام فخر الدين الرازي في كتابه ((أساس التقديس)): ((اعلم أن الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شيء ثم وجدنا أدلةً نقلية يشعر ظاهرُها بخلاف ذلك فيها هنا لا يخلو الحال من أحد أمور أربعة:

أما أن نصدّقَ مقتضى العقل والنقل؛ فيلزم تصديق النقيضين وهو محال.

وإما أن نبطلهما؛ فيلزم تكذيب النقيضين وهو محال.

وإما أن نصدق الظواهرَ النقلية ونصدّقَ الظواهرَ العقلية. وذلك باطل؛ لأنه لا يمكننا أن نعرف صحةَ الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية إثبات الصانع وصفاته. . . .

إلى أن يقول:

((فثَبَتَ أنَّ القدحَ في العقلِ لتصحيح النقلِ يُفْضي إلى القدح في العقل والنقل معاً، وإنه باطل؛ ولَمَّا بَطَلَتْ الأقسامُ الثلاثة لم يَبْقَ إلاَّ أن نقطع بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة، ونقطع بأن هذه الدلائل النقلية المراد إما أن يقال: إنها غير صحيحة، أو يقال: إنها صحيحة إلا أن المراد منها غير ظواهرها، **ثم إن جوزنا التأويل** اشتغلنا على سبيل التبرع بذكر تلك التأويلات على التفصيل. وإن لم تجوز التأويل **فَوَّضْنَا العلمَ بها** إلى الله تعالى. فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه في جميع المتشابهات))[1].

ملاحظات مهمة في بيان هذا القانون:

١- أساس التقديس، لفخر الدين الرازي: (ص٣١٥، ٣١٦)، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الله محمد عبد الله إسماعيل. الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث. الأولى لسنة ٢٠١١م- ١٤٣٢هـ.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

١- يستحيل وقوعُ التعارض بين قضيةٍ عقلية قطعية ونص نقلي قطعي الورود قطعي الدلالة لأن الحقائق تتآلف ولا تتخالف.

٢- يتصور وقوع التعارض بين قضية عقلية قطعية ونص نقلي قطعي الورود ظني الدلالة. وفي هذه الحالة لابد من تأويل النص أي تفسيره بما لا يتعارض مع القضايا العقلية القطعية، وبيان أن ذلك الظاهر الذي ظهر ولاح للمستدل غير مراد قطعاً. ومثال ذلك: أن الله الخالق العظيم الذي ليس كمثله شيء يستحيل أن يحل في شيء من مخلوقاته، وهذه قضية عقلية قطعية متأيدة بالنقل، وقد يظهر لبعض من لم يفهموا هذه القضية بعضُ ما يظهر ويلوح لأذهانهم الفاسدة في نصوص القرآن الكريم فيحتجون مثلاً: بقوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾على إثبات الجهة لله أو الجلوس أو الاتصال أو الانفصال. فيكون العقلُ هو الحاكمُ ببطلان هذا التوهم لأن الاستناد إلى ظاهر النص اعتماداً على الظن وهو يعارض اليقينَ فيبطل. ويبطل معه النقلُ كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾إذ يكون لله أمثال كثيرة من الملائكة في السماء..

فيظهر لنا من هذا التحقيق أن الأشاعرة قد استعملوا العقل في المجال الذي لا يجوز أن يستعمل فيه النقل ويكون استعمال النقل فيه إما موجباً للدور أو موجباً لإبطال العقل والنقل جميعاً فهم قد استعملوا العقل في مجاله الذي يجب أن يستعمل فيه وهذه هي الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

٣- إن تقديم العقل على النقل إذا عارضه، وتأويلَ النقل بناء على هذا التعارض، ليس أمراً انفرد به الأشاعرة، بل هو من مقررات العقول، وقد قرره أصحاب العلوم المختلفة في علومهم ومن ذلك التأويلات التي أول بها السلف جملة من نصوص الكتاب والسنة كثير منها مثبتة على مخالفة ظواهر هذه النصوص للعقل. وحتى المحدثون الذين قد يُتَخَيَّلُ أنهم أبعد الناس عن هذا التقديم قد قرروه في مؤلفاتهم وجعلوه من أصولهم؛ قال الخطيب البغدادي في كتابه ((الفقيه والمتفقه)): ((باب القول

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

فيما يرد به خبر الواحد... وإذا رَوَى الثقةُ المأمونُ خبرًا متصل الإسناد رُدَّ بأمور: **أحدها**: أن يُخالِفَ مُوجِبَاتِ العقول فيُعْلَمَ بطلانُه؛ لأنّ الشرع إنما يَرِدُ بمُجَوَّزَاتِ العقول وأما بخلاف العقول فلا. **الثاني**: أن يخالف نَصَّ الكتاب أو السنة المتواترة فيُعلَم أنه لا أصل له أو منسوخ. **الثالث**: أن يخالف الإجماع فيستدل على أنه منسوخ أو لا أصل له))[1].

٤- والشيخ ابن تيمية أيضًا قال بهذه القاعدة التي قرَّرها الأشاعرةُ كما في (الرسالة التدمرية)[2] له، حيث قال في معرض الاستدلال على أمر من أمور العقيدة: ((والسمع قد دل عليه ولم يعارض ذلك معارض عقلي ولا سمعي فيجب إثبات ما أثبته الدليل السالم عن المعارض المقاوم)). وهذا معناه إذا عارض هذا الدليل معارضٌ عقلي لا يثبت ما دلَّ عليه لعدم سلامته من المعارض وهذا الدليل العقلي.

الخلاصة:

أنه لا يُتصور تعارضٌ بين العقل والنقل، إلاَّ في ذهن مَن يكتفي بظواهر النصوص الظنية الدلالة فيُقدم ما فهم، على العقل، ويجمد على الظواهر تعنتًا على الرغم من مفارقتها للبرهان العقلي الثابت القاضي بتنزه الله تعالى عن مشابهة الخلق. وليس التنزه مأخوذًا عن العقل القطعي وحده بل عن النقل القطعي أيضًا.. وفي النهاية هذا القانون لرفع كل تعارض متوهم في أوهام المشبهة والحشويين، ورد المحكم إلى المتشابه..

خاتمة البحث

خلص الباحثُ إلى نتائج مهمة وتوصيات يرى أن توضَع موضع الاعتبار.

النتائج:

١) مَرَّ الإمامُ الأشعريُّ في حياته بمرحلتين فقط، فقد كان أولاً على مذهب المعتزلة حينًا من الزمان، ثُمَّ رجع منه إلى مذهب الصحابة والأئمة إلى آخر عمره، وليس

١- انظر الفقيه والمتفقه ج١ ص ١٣٢.

٢- الرسالة التدمرية لابن تيمية ص ٢٢.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

صحيحًا ما يقال بأنه كانت له ثلاثُ مراحل هي الاعتزال والكلابية ثم مذهب السلف.

٢) المذهب الأشعري هو المذهب العدل الوسط بين الاعتزال والتشبيه والذي يُمثّل الوسطية الحقة.

٣) أدّتْ جهود الإمام الأشعري والأشاعرة في المذهب إلى القضاء على المذهب المعتزلي، وما بقي له من آثار ضعيفة فقد أحياها الروافضُ والشيعةُ محصورةٌ فيهم.

٤) للأشعرية إسهاماتٌ واضحةٌ ومؤثّرة في تاريخ الإسلام ووحدة أهله وجمع العلوم ونشرها، ومراجعهم في مختلف العلوم هي التي تعتبر أساسَ الدّين.

٥) يقوم منهجُ الاستدلال على العقيدة عند الأشاعرة على الكتاب والسنة والإجماع مع عدم إهمال العقل، وهذا هو منهج المحدثين والأثريين وأكابر الأئمة المتّبعين.

٦) يجعل الأشعريون الحديثَ المتواتر أصلاً وأساسًا في المطالب العلمية كباب الصفات وأصول الدين المعلومة المتفق عليها التي لا يصلح لها إلاّ اليقين، بينما تجدهم يتساهلون في بقية الأحاديث بما هو أدون من ذلك؛ حيث إنها مطالب عملية أو فروع.

٧) في توضيح العلاقة بين العقل والنقل أثبتَ الباحثُ عدمَ التناقض بينهما، وأنّ اتّهام الأشعريين بكونهم يقدمون العقل على النقل غفلةٌ عن قواعد مذهبهم. والواقعُ أنهم يقدمون النقلَ أبدًا ثمّ يجعلون العقلَ عاضدًا. وفي أبواب المتشابه وما ظاهرُه التعارضُ تظهر هذه المزيةُ واضحةً ولكن بحسب أصول مذهبهم لا بحسب فهم الخصم.

٨) تَميُّزَ الأشعريةُ في استدلالاتهم بالأحاديث، بالدّقّة والتنبُّه التامّ للتمييز بين ما يُقْبَلُ وما يُرَدُّ من الحديث، ومراتب الحديث وصيغ أدائه وصرف معانيه إلى الدلالات العقلية المعتبرة التي لا تناقض التّنزيهَ.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

التوصيات:

ويوصي الباحثُ بما يلي:

١) التريث التامّ في قبول كلّ ما يُصْدَرُ من أحكام على المذهب الأشعري، وإعادة دراسته من خلال مراجعه الأساسية وواقع قواعده وأصوله.

٢) يواجه المذهبُ حملةً جائرةً من التزيد والتشويه لصورته في أذهان المسلمين، وهي تُحَاكُ ضدّه بطرق من الحيل والطعن مدروسة، فالمطلوب مراعاةُ شعورهم وأُخُوّتهم وتقوى الله فيهم، من نسبة أقوال وأفكار لهم لم يقولوها.

٣) المحافظة على التراث الأشعري العلمي والعمل على نشره وتقريبه والاهتمام به؛ ضمانًا لوحدة المسلمين وتوقيًا من تشتت أفكارهم.

ثبت المراجع

١. أساس التقديس، لفخر الدين الرازي: دراسة وتحقيق الدكتور عبد الله محمد عبد الله إسماعيل. الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث. الأولى لسنة ٢٠١١م= ١٤٣٢هـ.

٢. الإبانة عن أصول الديان ،للإمام علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري أبو الحسن ط: دار الأنصار - القاهرة الطبعة الأولى ، ١٣٩٧تحقيق :د. فوقية حسين محمود.

٣. الأسماء والصفات، للإمام الكبير حافظ عصره أحمد بن الحسين البيهقي مكتبةالسوادي – جدة الطبعة الأولى.

٤. الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى، للإمام شمس الدين أبي عبد الله القرطبي . تحقيق الشحات الطحان. مكتبة فياض.

٥. العبر في خبر من غبرللإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ط: دار الكتب العلمية - بيروت.

٦. الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث ،للإمام البيهقي طبعة دار الآفاق الجديدة بيروت.

٧. الإنصاف، لأبي بكر الباقلاني، أعده للنشر وقدم له بدراسة عن المؤلف ومنهجه في الاستدلال الحبيب بن طاهر، دار مكتبة المعارف للطباعة والنشر - بيروت. الطبعة الأولى ٢٠١١.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

٨. الرسالة اللدنية، للإمام أبي حامد الغزالي ، ط دار الكتب العلميّة، بيروت.

٩. تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لعلي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي ط: دار الكتاب العربي - بيروت.

١٠. الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ط: دار إحياء التراث - بيروت.

١١. تاريخ بغداد تأليف الإمام أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا . ط: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

١٢. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، الطبعة الثانية، تحقيق: د. محمد بن شريفة.

١٣. شذرات الذهب في أخبار من ذهب المؤلف: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي تحقيق: محمود الأرناؤوط ط: دار ابن كثير، دمشق - بيروت.

١٤. طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، طبعة، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ.

١٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩م.

١٦. معيد النعم ومبيد النقم، لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي ؛ قدّم له وشرحه وأعدّ فهارسه الدكتور صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية – صيدا، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م = ١٤٢٨هـ .

١٧. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ط: دار صادر – بيروت.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com